في عالم السجون

— ١ —

(عن الاهرام)

نشر منذ ايام قسم خارجي من المذكرة التي قدمها المندوبون المصريون الى مؤتمر السجون الدولي وهذه المذكرة اعطتنا صوراً متتابعة للخطوات الرسمية التي خطتها السجون في مصر ولكنها تبقى القارئ خارج جدران السجون ولا تهديه فرصة يطل في اثنائها على هذا العالم المدهش ويشعر بخفاياه وقد يكون ذلك خارجاً عن مهمة المندوبين سبق الى المؤتمر ولكنه ضروري للرأي العام في مصر ما دمنا نريد اصلاح السجون يجب ان نعرف دخائل هذه السجون لنعرف ما يجب اصلاحه منها .

ويمكنني ان اقول بعد تجربة اربعة اعوام طويلة قضيتها في السجون المصرية اني خرجت منها متشائماً كل التشاؤم لا متفائلاً لما يتعلق بمهمتها الاصلاحية ولم يكن ذلك رغبة في الانتقاد ولا هي تلك العاطفة التي يشعر بها الانسان عادة في عصور الانتقال ولا من اثر الآلام التي ذقتها كسجين لاني اصبحت اعد هذه الاعوام الثلاثة مرحلة شائقة كريمة استفدت منها كثيراً من المشاق التي لا تخلو من فائدة خصوصاً لمن يريد ان يقف ايامه على الاصلاح ، ويتتبع دقائق الحياة في الاغوار السحيقة المظلمة وعلى متون الخيال ، يتعهدها وهي تمرد على الروح والازدهار وتدب في القبور على اشلاء الموتى ليعرف حدودها السالمة واذا اراد في يوم من الايام ان يصف علاجاً لاحيائه الانسان قدمه له صافياً من جميع الآفاق ، كأنه عن الحياة نفسها لا عن الوهم والخيال .

نظام السجون

القاعدة المتبعة في السجون المصرية الآن مشتقة عما هو معروف في انظمة السجون

الانجليزية بطريقة الصمت وهي احتجاز المحبوسين كل واحد في اوقات الشغل والطعام والنوم مع لزوم الصمت التام وقد جاءت السجون الانجليزية الى هذه الطريقة بعد ان كانت تتبع الطريقة التي تقضي بالنظام الانفرادي وهي ابقاء المحبوس في حجرة الزنزانة الانفرادية مدة طويلة وذلك لكسر شوكته وارجاعه الى الصواب وحيث وجد ان هذه الطريقة خطر على الصحة والعقل خفف الى طريقة الصمت المذكورة . ولكن هذه الطريقة لاقت اعتراضات كثيرة من الكتاب والمصلحين في انجلترا لان تطبيقها يجري بواسطة سجانين غير مسؤولين وغير مدركين لحكمتها لا تحقق المقصود منها . وذلك هو الواقع في مصر من السجانين والاغلبية الساحقة منهم لا تعرف حتى كتابة الاسم يطبقون هذه الانظمة تطبيقاً عليماً جافاً ليس فيه شيء من الروح التي وضعت لها بدعوى المحبوس ومحاربة نفسه في قطع والاثر الا لا يدخل في روعه انه موجود في معهد من معاهد الاصلاح وبالعدل والجو الهادىء الذي وضعت طريقة الصمت لايجاده من الموازنة بين الاعمال والترجيح بين الرديء والطيب منها بل على العكس من ذلك يدخل المحرم السجن وكل ما يعرفه انه يدفع من حر يده اسيراً بمعاملات السجن في نظر المجرمين الآن خصوصاً العائدين منهم انما هو «تمعود» للمراس وقد قالت مرة وانا في السجن ان احد المجرمين العائدين الذين يترددون بكثرة على السجن لأن يوصي زملاءه المسجونين بالمحافظة على «برمه» «وبطانيته» الجديدة حتى يعود له .

ولا الحارس يعتقد ان السجين الذي يقوم على حراسته وابقائه في حدود الهدوء والصمت الهادئ مريض نفسي والغاية من وضعه في السجن شفاءه او الحيلولة بينه وبين المجتمع ان كان لا امل في شفائه بل العقيدة السائدة بين هؤلاء السجانين ان المجرم ارسل اليهم لعقابه والاقتصاص منه .

فالسجون في الحقيقة تطبق تطبيقاً آلياً خالياً من الروح مع ان اولاء الاحرام كانوا يحملون الآن جميع مظاهر الاقتصاص القديمة لاعتمادهم في اصلاحاتهم على العوامل النفسية واصبحوا يؤيدون شدة فائدة العمل في الهواء الطلق كالزراعة وغيرها عن طرق الحجز القديمة .

اليأس في السجون

هذه الحالة الناشئة عن تطبيق الانظمة تطبيقاً آلياً بواسطة العمال حتى أصبح اقرب الى الميكانيكية والابتعاد بها عن الاصلاح والانسانية توجد عند جميع المسجونين تقريباً روح يأس وحقد على كل شيء . مع ان مهمة اصلاح المجرم تستلزم خلق الآمال في الحياة الحاضرة والسعيدة وان يقرب ما يريده من المجتمع بطريقة سهلة والمساواة وفي الولايات المتحدة [illegible] الآن دائماً بخبيرين في الشئون الفنية في السجون لتسترشد بهم في معاملتها للمسجونين وهذا اليأس منتشر في جميع السجون المصرية تقريباً وسبب ذلك يرجع الى الاعتقاد عند المسجونين اذ كل مسجون يعتقد انه ضحية وانه مطرود من المجتمع ولا امل في رجوعه الى الحياة الشريفة يعيش فيها بروح عادية مدحضة واهمال جميع المبادئ الاجتماعية والاخلاقية ويصبح كل أمله محصوراً في الخلاص بأي طريقة من الطرق حتى أني لا أرى عيادة مظهراً من مظاهر الحياة كالتي رأيته في السجون وذلك لانها الحياة الناشئة عن يأس يدعي الهرب الى الاعتداء بها الى أي شيء آخر وكثيراً ما رأيت مسجونين يعتمدون على أجسامهم بأيديهم ويسيلون منها الدماء عمداً وذلك رغبة في الهرب من عمل من الاعمال او راحة لا تجاوز اليوم او اليومين ومنهم من يتعاطى اشياء خاصة معروفة لديهم حتى ترتفع حرارة اجسامهم الى درجة الاربعين او يوجدون آثاراً شديدة بها بسبب عنده ومنهم من يخيط اوراق اللفة في باطن قدمه بالخيط والابرة ليحصل بها على ميعة داخل السجن ، اما تصنع الجنون فهو شائع جداً ومن الحوادث اليومية . وقد بلغني ان بعض المسجونين في ابو زعبل يعرض بعض اطرافه للقاطرات السكة الحديدية حتى اذا أصيب شيء منها [illegible] في بعض الاحيان وتلك قصة مشهورة في السجون ولكن لم اتحقق منها بنفسي .

واذا كان لمبروزو يعتقد ان المجرم الطبيعي هو نوع من الانسان يقف بين الانسان والمتوحش فاني رأيت في السجون المصرية كثيراً من المجرمين [illegible] الجنون والتوحش ولا اعتقد ان ذلك كان طبيعياً فيهم بل من عوامل خارجية أكثرها ما يرى في السجون فيأس المسجونين مشكلة كبرى تتعلق بالاصلاح مباشرة ولذلك تعني عناية جدية بالبحث والاستقصاء ومن الخطأ ان يعتقد اي انسان ان هذا اليأس مظهر من مظاهر التهذيب والتوبة بل على العكس من ذلك فهو مظهر من مظاهر الاختلال النفسي التام .

التحايل في السجون

اما التحايل فهو كثير ومتنوع يلجأ اليه المسجونون بكثرة عادة [illegible]

قول الصدق ومع ذلك يبرح السجون به دينا من الكذب تخفيه ومن المسجونين من يتصنع المرض الى درجة يخدعون بها الاطباء انفسهم في بعض الاحايين وليس بعيد مطلقا بل من المنتظر ان يستعمل المجرمون هذه الطرق التي يمارسونها في السجون بعد اطلاق سراحهم للاحتيال على الناس في الخارج . وسبب هذا التحايل هو تطبيق نظام السجون تعديا وبدون تصرف ولذلك فالمجرمون لايجدون طريقا للخلاص الا التهرب من القانون واعمال الحيلة لاجل هذا التهرب ولو ان مديري السجون يفتحون امام المجرمين منافذ أخرى للخلاص كالصدق ونية العزائم الطيبة التي تكون كامنة في نفوس كثير من المجرمين احيانا لكان من المعقول جداً ان يختفي نهائيا بعض المجرمين او كثير منهم ماداموا يعتقدون انها تجيبهم من الجزاء .

والواقع انما وضعت لتبين الحدود القصوى للعقاب ولم توضع لتضع مقياسا حتميا يعامل بمقتضاه جميع المسجونين في جميع الظروف والاحوال لان التهذيب لايكون تماما بل يكون تبعا لتجربة القائم على التهذيب نفسه وهو يقدر ما يراه لازما لكل حالة من الاحوال .

المنوعات

تكاد تنحصر قضايا السجون ومشاغلها في مشكلة الدخان !! . . فالدخان ممنوع منعاً باتاً ولما كانت انظمة السجون كما بينا تطبق بطريقة آلية لايتحمل المسجون يتشبع بروحها ولا السجان نفسه يؤدي ما يحقق حكمتها لانه لايفهم هذه الحكمة فالسجون عبارة عن سوق سرية لتجارة الدخان وكل مسجون يمكنه ان يحصل عليه مادام قادراً على ان يدفع ثمنه وقد يباع في الحقيقة الواحدة منه اربعين قرشاً والقائمون بهذه التجارة هم الاحرار ما لاخص اكثر المجرمين معرفة بالسجون وقدرة على تهريب الدخان من الخارج والعادة التي كان يرجى ان يقضى بها منع التدخين جلبت اضعاف اضعافها مساوىء فالمسجون يمكنه بكمية من السجاير ان يسخر لاغراضه كثيراً من زملائه الذين معه وفي العادة لايحتاج الى هذا التسخير الا من اراد ان يخل بالنظام لان من يريد ان يحافظ عليه لايحتاج الى معونة غيره من المسجونين بل يمكنه في ذلك ان يعتمد على ادارة السجن دون سواها فالدخان هو الحاكم المسيطر على الاغلبية الساحقة من المسجونين .

وكثيراً ما يتحمل المسجونون الهوان والمسكنة والذل من اجل الحصول على جزء من لفافة من زملائهم الذين يقدمونه ثم يعتادون مع مرور الزمن على هذا الهوان ويقبحونها في انفسهم من اثره ومن ثم وربما كانت الدخيل الوحيدة التي بالنسبة اليها ان يقعون في ثقة شر من الاسرار هي ما اتى عليه الدهر في نفس الشرير من كبرياء وعزة نفس الا ان تعتقد في اعماقنا العظمة والشهامة كما يسمونها . فما ظنك اذا لو ضاعت هذه البقية الباقية واصبح ولا

اذ لا عزة ولا ضمير ولا قواماً اخلاقياً عنده ؟ لاشك انه يصبح وحشاً ضارياً يضرب في كل شيء ومثال .

الخضوع للقانون

وزيادة على ذلك فهذه الحالة تقربا ينعقد عليها احياناً بعض المشرفين على السجون ويعدونها خضوعاً للقانون وامتثالاً فترى المجرم في كثير من الأحيان يهوي على حذاء سجانه وياخذ في تقبيله بكل بساطة واذا ما حصل على مطلبه نام من فقده اللغة الشفاه . تهللاً جذلاً وبدلاً من ان يعتريه الخجل تظهر عليه علامات النصر والغلبة ولو اسند مديري السجون استقصوا في تاريخ هذه النزعة داخل نفس المجرم وتتبعوا منشأها لتبين لهم ان هذه الظاهرة انما هي آخر درجات التدهور النفسي التي تطفئ عندها جميع ما في النفس من مشاعر واحساسات وذلك يصبح المجرم في حالة يحس معها جميع العواطف وينمحي فيها بقلبه وتحديته وضميره في سبيل الحصول على منفعة وبالتها من المنافع واللذائذ التي عامها يقدر واستحابه وميزها بعنصري الابتهاج والدوام بل هي من المنافع التافهة الوقتية الحقيرة التي يعز على من له عقل متزن ونفس حساسة ومواضع المشاعر والاحساسات الراقية ان يجهد في سبيلها اسماً من التابعة .

وسنتكلم في المقال التالي على بقية المظاهر الحيوية في السجون

حسني عبده الشنتناوي
حقوقي

***